الأَثَرُ العَامّ

تكاد تنحصر مظاهر هذا الأثر فى أمور أربعة :

الأول : بقاء اللغة هذا الأمد الطويل ؛

الثانى : توحد لهجاتها ، وزوال ما كان فيها من تناكر ؛

الثالث : جعلها لغة رسمية فى جميع الممالك التى دخلها الإسلام ؛

الرابع : جعلها لغة تعليمية ، بعد أن كانت ملكة راسخة .

* * *

وتلك كلمة متواضعة عن كل من هذه الأمور الأربعة تشرحه نوعًا من الشرح ، وتفصّله شيئًا من التفصيل :

بَقَاءُ اللُّغَةِ

يحدثنا التاريخ عن أمم كثيرة ، سادت حتى ملكت . وضعفت حتى امّحت ؛ وقد كان لتلك الأمم لغات سايرت حياتها السياسية جنبًا إلى جنب ، وكانت مرآة تنعكس عليها صور وجودها وألوان حياتها . فرقيت برقيها ، وضعفت بضعفها ثم أصبحت يعرفها التاريخ كما يعرف الشيء : عفت آثاره ودرست معالمه . فلا يدركه الناس عن طريق وجود قائم ، وإنما يدركونه من طريق تاريخ متحدث .

فاللغة الفينيقية ، لغة أهل لبنان قديمًا ؛ واللغة الآشورية ، لغة أهل نينوى ؛ واللغة المصرية ، وغيرها مما لسنا بسبيل حصره ، لا ترى لها ظلاً إلا فى بطون الصحف ، وأعماق القبور ؛ طوى الزمن صفحتها ، ومحا آيتها على ما كان لأهلها من حضارة رائعة ، ومدنيّة بالغة ، وسلطان عظيم .

وذلك أن اللغة ، ككل مظهر اجتماعى ، خاضعة لقانون النشوء والارتقاء . فهى تقوى وتضعف ، وهى ترقى وتنحط ، ثم هى تحيا وتموت ؛ فإذا رقيت الأمة أو انحطت ، وضعفت أو قويت ، ظهر ذلك فى لغتها جليًّا واضحًا .

تخضع الأمة لغيرها من الأمم ، فتمتزج بها ثم تفنى فيها ؛ فتخضع اللغة وتمتزج ثم تفنى فى لغتها ؛ وقد تخضع اللغة للتغير والتبدل من طريق آخر غير طريق الامتزاج بأمة أخرى ، كأن يهاجر فريق من الأمة إلى موضع ، وآخرُ إلى آخر ، ويرى كل من أسباب العيش ومقتضيات الحياة ما لم يكن يرى من قبل ، وما لا يرى غيره ، فلا يسعهم إلا أن يخضعوا لأحكام البيئات الجديدة ، فيأخذ كل فى خلق لغة تناسبه وتتفق مع نوع حياته ، بحكم أنه لا يجد ما يلزمه الحرص على اللغة الأولى ، وقد وجد ما يدفع به إلى هجرها والخروج عنها ؛ ومن ذلك تزول اللغة الأصلية ، وتبقى أثراً من الآثار .

وهذا ما حدث لتلك اللغات التى ذكرنا ، ولغيرها مما يعتبره المؤرخون لغات أثرية — فقد امتزجت أممها بغيرها ، أو هاجر بعضها إلى موطن غير

موطنها ، ففنيت لغاتها فى لغات الفاتحين أو تباعدت واختلفت اختلافاً شديداً ، جعل منها لغات كثيرة لا صلة بينها وبين أصلها الذى عنه صدرت ومنه نشأت .

وليس هذا الذى ذكرنا من أن اللغة تتبع حياة الأمة وتأبى إلا أن تكون صورة لها ، بحيث يمكن — لاختلاف نوع الحياة اختلافاً عظيما — أن ينكر بعضها بعضًا إذا لم يكن ثمة ما يحمل الأمة على الاحتفاظ بها والتعرف إليها ؛ نقول : ليس هذا خاصًّا باللغات فى القديم ؛ فقد سمعنا وقرأنا ، واثقين ، أن اللغة الفرنسية اليوم غيرها منذ مائة عام أو أقل ، حتى لقد ذكروا أن (لنابليون) مذكرات تحتاج اليوم إلى من يترجمها للفرنسيين الصرحاء .

وأقرب من هذا وأوضح ، لغاتنا الدارجة ، فهذه اللغة المصرية غير اللغة الشامية ، وهما غير اللغة الحجازية ، مع أنها فى الأصل لغة واحدة ، هى اللغة الفصحى ، أخذت لهجات متعددة ، ورأت أشياء متخالفة ، فتقاطعت لأنها لم تجد ما يمنعها من التقاطع والاختلاف .

لا شبهة فى أن اللغات تتغير وتتبدل ، ولا شبهة فى أن هذا التغير والتبدل قد يعظم ويتسع ، حتى يجعل اللغة الواحدة لغات كثيرة متباينة ؛

ولكنا إذا نظرنا إلى اللغة العربية رأيناها تطوى هذا الأمد الطويل ، وتقطع تلك المراحل الشاسعة ، وتمتزج مع ذلك بأمم كثيرة ، وتواجه مدنيات شتى يرغم أقلُّها شأنًا أكثر اللغات غنىً ، على العجز — ثم هى هى ،

لا يكاد يجد الناس بدًّا منها ولا منصرَفًا عنها ، ولا يزيدها كر الغداة ومر العشى إلا قداسة وجلالا ، يجعلانها تتشبث بالبقاء وتمشى إلى الخلود .

ما السرّ إذن فى هذا الشذوذ عما قد خضع له كل ما يعرف الوجود من لغًى ؟ وما تلك القوة التى تحوط اللغة العربية وترعاها ؟

لا نستطيع أن نقول إن سر ذلك أنها لغة مدنية فيها كل ما تفتقر إليه الأمم فى كل الأزمنة من ألفاظ ومعان وأخيلة . بحيث يجد الناس فيها كل ما يفتقرون إليه ، فهم لذلك يحرصون عليها ، ويصدون عنها عوادى الزمن ، حتى بقيت لم يمسسها سوء ؛ لا نستطيع أن نقول ذلك ؛ فما نعرف لغة فى الوهم بهذا المكان ؛ ولو أن ممروراً استفرغ قوى مرّته ليأتى بمثل هذا ما استطاع إليه سبيلا . والواقع يكذب هذا ؛ لأنها أخذت فعلا من غيرها من اللغات فى القديم والحديث ؛ هذا إلى أنها لغة بداوة ، تعرف الصحراء وما يتصل بها من الناقة والبعير ، والضب واليربوع ، والشيح والقيصوم .

ولا نستطيع كذلك أن نقول إنها لغة قوم اجتمع لهم من القوة والسلطان فى كل الأزمنة ما يقف إلى جانب تعصبهم لها ويرغم الناس على حفظها ومعالجة أصولها وآدابها على نحو ما تفعل أمم الغرب فى مستعمراتها اليوم ؛ فقد رأينا نفوذ العرب أخذ يضعف فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، بل رأينا النفوذ الإسلامى نفسه يضعف حتى تسقط بغداد فى يد التتار وتجتاز الأمم الإسلامية عصوراً كقطع الليل ، مسلوبة القوة وما يشبه القوة فلا نفوذ ولا سلطان .

وإذا كان لا مناص من التسليم بأنها ليست لغة مدنية على النحو الذى وصفنا ، وأن العرب لم يجتمع لهم فى كل الأزمنة ما يرهب الناس أو يرغبهم فيتوددون إليهم بحذق لغتهم ، وأن الناس أبداً ، إنما يعزون الشىء ويقبلون عليه راغبين أو راهبين ، علمنا أن بقاء تلك اللغة الشريفة إلى اليوم أثر من آثار القرآن الكريم .

ومن الميسور تصور ذلك والإذعان له ، إذا تصورنا ما للقرآن من منزلة سامية فى نفوس أولئك الذين هداهم الله للإسلام ، وخالط حبه — لعدالة مبادئه ووضوح تعاليمه — قلوبهم ، فقد رآه المسلمون ، كما هو فى الواقع ، دستورَ الإسلام الأعلى ، ومفخرته الكبرى ، فحرصوا عليه ، ووقفوا يبذلون فى الدفاع عنه أعزّ ما يملكون من دمٍ ومالٍ ، وليس ذلك لأنه جماع الخير حسبُ ؛ بل لذلك ، ولأن الاحتفاظ به على الصورة التى أنزل عليها يحقق الحكمة من ذلك ، وهى بقاء هذه الصورة الرائعة آية إعجاز ، وبرهان عجز ، فطبيعىّ أن يحافظ المسلمون على ألفاظه وتراكيبه ، لتظل المعجزة باقية على وجه الدهر ، فإن القرآن قرآن بمجموع ألفاظه ومعانيه ، والتعبير عن تلك المعانى بألفاظ غير ألفاظه يخرجه عن الصورة التى نزل بها ؛ وأعجز البشر عليها .

وواضح أن نظر المسلمين إلى القرآن هذا النظر الذى هو فى الواقع مقتضى من مقتضيات الإسلام ، يستلزم أن ينظروا هذه النظره نفسها إلى اللغة العربية ، لأنها المرجع فى حفظه ، والسبيل إلى فهمه ؛ وأن

يعتبروا كل عدوان عليها عدواناً عليه وكل تكريمٍ لها وإشادةٍ بها تكريماً له وإشادةً به .

ولعل هذا هو سر مهاجمة الإلحاد للغة ومحاولة تنقُّصها ، والتشكيك فى ماضيها ؛ وعدم الامتعاض لها والذبّ دونها ؛ فقد يرى أن هذا سبيل قريب أو بعيد للنيل من القرآن .

وإذن ، فإن بقاء العربية إلى اليوم ، وإلى ماشاء الله ، راجع إلى الدفاع عن القرآن ، لأن الدفاع عنه — لكونه أصلَ الدين ومستقى العقيدة يستتبع الدفاع عنها لأنها السبيل إلى فهمه ، بل لأنها السبيل إلى الإيمان بأن الإسلام دين الله ، وأن القرآن من عنده لامن وضع النبى وأصحابه .

ولو فرضت أنه نزل كما نزل غيره من الكتب المقدسة ؛ حكماً وأحكاماً ، وأمراً ونهياً ، ووعداً ووعيداً ؛ ولم يتحرَّ هذا الأسلوب الذى جاء به ، فلم يعن الناس بلفظه ولم ينظروا إليه قولا فصلاً ، وبياناً شافياً ، وبلاغة معجزة ؛ لكان من الممكن أن تزول هذه اللغة بعد أن يضعف العنصر الذى يتعصب لها على أنها لغة قومية ، ومن ذلك تضعف هى وتتراجع حتى تعود لغة أثرية .

وفى اللغة العبرية مايؤكد هذا الذى نقول ؛ فإنها — وهى لغة كتاب مقدس — صارت إلى ذمة التاريخ . ولو أن التوراة جاءت كما جاء القرآن فتحدت اليهود على النحو القرآنى لاحتفظوا بلغتهم لأن فى ذلك احتفاظا بمعجزة نبيهم ؛ فكان ممكناً أن نرى اليوم لغة موسى عليه السلام .

ولكن التوراة لم تعن بالناحية اللفظية ، إذ لا حكمة تدفعها إلى ذلك، لأن اليهود لم يبلغوا من قوة اللسن ،وحسن البيان، أن يروا التقصير فى ذلك شيئاً له قيمته وخطورته ، كما كان الشأن عند العرب ، حتى تتحداهم التوراة لتعجزهم ، ومن ذلك تلجئهم إلى الإذعان وتحملهم على الخضوع ؛ لذلك لم تعن إلا بالناحية الاختراعية ، فعنى الناس بما فيها من ذلك ينقلونه إلى اللغة التى يريدون ، ويفرغونه فى القالب الذى يشاءون ماداموا لاحاجة بهم إلى الحرص على الألفاظ .

ومن ذلك اندفعت العبرية تصارع الأحداث الزمنية بما فيها من مناعة ذاتية ، خاضعة خضوعاً مطلقاً لقانون النشوء والارتقاء من غير أن يكون لها سند تركن فى حياتها إليه، وتعول فى بقائها عليه ، فما زالت تنمو وتضعف ، وتلفظ قديماً وتؤوى حديثا ، حتى وصلت إلى مايسميه الناس اليوم العبرية ، وشتان ماهى ولغة موسى عليه السلام .

الخلاصة: أن اللغة العربية، كغيرها من لغات البشر، خاضعة للتغير والتبدل ، وللزوال والفناء ، وأن القرآن الكريم بحكم أنه لسان الإسلام الناطق ومعجزته الباقية ، هو الذى حفظها من الضياع ؛ لأنه جاء على وجه تحدى به العرب تحدياً صارخاً فذلوا واستكانوا فحرص كل مسلم على ألفاظه احتفاظاً بالمعجزة ، وتعبداً بتلاوته ، ولو أنه جاء كما جاء غيره من الكتب مجرداً عن الإعجاز ، لما كان حتماً على الناس أن يلزموا أنفسهم تعهدها والتعرف إليها ، بل كانوا يأخذون مافيه

مما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم بعد أن ينقلوه إلى لغاتهم فتضطر العربية أن تقف وحدها فى معترك الحياة فلاتزال تتطلع إلى التجديد حتى تصبح فى مبدئها ونهايتها لغتين أو لغات متباينة ، أو تمشى إلى الموت وتدب إلى الفناء ، حتى تصبح فى ذمة التاريخ .

تَوَحُّدُ لَهَجَاتِهَا وَزَوَالُ تَنَاكُرِهَا

للعرب لهجات كثيرة متباينة ، منها الردىء المستكره ، تعزف عنه النفس ، وينفر منه الطبع ، ومنها الفصيح المقبول ، يحسن وقعه فى السمع ويخف نطقه على اللسان ؛ شأن الأمة ، يقترب بعضها من حياة الحضارة ويظل محتفظا بمميزاته الخاصة ، فيكون له من ذلك ذوق ولطف حسن ، ويبقى بعضها حيث هو ، لاتأخذه عين المدنية فينشأ على مانشأته عليه حياة الخشونة والجفاف ، وذلك يظهر أثره فى تلك اللهجات الخشنة الجافة التى لا تكاد تسيغها الأسماع .

ولا أعنى أن منشأ تخالف اللهجات على هذا النحو ، إنما هو القرب أو البعد من الحضارة فحسب ؛ فإن لطبيعة الإقليم أثراً قويا فى هذا ؛ يدرك ذلك واضحاً من ينظر فى لهجات الأمم فى مختلف أنحاء الأرض ، فهذا الغربىّ يستشرق ، وله لهجته الخاصة ، وقد يكون أعرف بالعربية من كثير من أهلها ثم لايستطيع أن ينطق بالكلمة على نحو مقبول ، بل هو لا يستطيع أن ينطق ببعض حروف خاصة فيها ولو أكره نفسه على ذلك

إكراها شديداً . ثم هناك العلل الطبيعية ، وسوء السمع ، وسوء الأداء ، تنحرف باللهجة عن مواقع القبول ، فيأخذها السامع كذلك . ومع طول علاجه لها ، ومرانته عليها ، يألفها فلايعدل عنها ، لأنه يرى فى ذلك مايرى الناس فى العدول عن الشىء ألفوه ، من نبو وغرابة .

ولم يعن العلماء بجمع هذه اللهجات المتخالفة فهى منثورة فى كتبهم حيث يطلبها الشاهد فى عرض كلامهم ؛ لأنهم لم يحاولوا وضع تاريخ للُّغة يصف الأدوار التى مرت بها ، والأطوار التى تقلبت فيها ، وقد يكون خير كتاب جمع قدراً صالحاً من ذلك ، تاريخ آداب العرب لأبى السامى ؛ فمن ذلك : « الكشكشة » وهى فى ربيعة ومضر . وقد تروى لأسد وهوازن ، ويروى ابن فارس أنها لأسد — يقولون : مررت بكِش ؛ يعنون بك فى الوصل والوقف أو فى الوقف فحسب ، وبعضهم يقول بِش ، وصلا ووقفا ، على أنهم لا يتقيدون بكاف المؤنثة أحياناً فيقلبون الكاف فى الخطاب مطلقاً شيناً ، وأكثر من هذا أنهم قد يقلبونها شيناً وإن لم تكن للخطاب !

قرأ ابن جنى على أستاذه :

علىَّ فيما ابتغى أبغيشِ ... بيضاء ترضينى ولا ترضيش
وتطلبى ودَّ بنى أبيشِ ... إذا دنوت جعلت تنئيش
وإن نأيت جعلت تدنيشِ ... وإن تكلمت حشت فى فيش
حتى تنقى كنقيق الدبش

يريد الديك ، فشبه الكاف لكسرتها بكاف المؤنث .

ومن ذلك « الكسكسة » لربيعة ومضر . ولغيرهما على خلاف فى ذلك وهى جعل السين فى خطاب المذكر بعد الكاف أو مكانها .

ومنها « الشنشنة » فى لغة اليمن . يجعلون الكاف شيناً مطلقاً : يقولون : لبَّيشَ اللهم لبَّيش . فى لبَّيك .

ومنها « العنعنة » فى لغة تميم وقيس ، يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً ، يقولون : عِنَّ أكرمك فى إذن أكرمك .

ومنها « الفحفحة » فى لغة هذيل يقولون : عَلَّتِ العَيَاة لكل عَىّ : يريدون : حلَّت الحياة لكل حىّ .

وتسمع الراجز من فقيم يقول :

خالى عويف وأبو علجِّ   المطعمان اللحم بالعشجِّ

يريد عليًّا والعشىّ ، ويقول :

يا رب إن كنت قبلت حجتج   فلا يزال ساجح يأتيك بج

يعنى : حجتى ، ويأتيك بى .

ومثل هذا وغيره كثير ، لا حاجة بنا إلى استقصائه . فحسبنا أن ذكرنا ذلك ، لأن الحاجة تدعو إلى ذكر القليل منه على أنه إشارة إلى دليل هذا الاختلاف الذى نحن بصدد الحديث عنه .

هذا ، وكما اختلفت اللغة من حيث هيئة النطق وما إليه مما يسمى اللهجة ، اختلفت من حيث معانى الكلمات ، فتدل اللفظة عند قوم على

معنى لا تدل عليه عند آخرين .

ذكر صاحب المزهر : أن زيد بن عبد الله بن دارم ، وفد على بعض ملوك حمير ، فألفاه فى متصيَّد له على جبل مشرف ، فسلَّم وانتسب ، فقال له الملك : ثِبْ ، فقال : ستجدنى أيها الملك مطواعًا ، وألقى نفسه من الجبل فهلك ، ولم يرد الملك إلا أن يقول له اجلس ، ففهم ذلك بلغته وهى بمعنى القفز كما رأيت !

وأصدق من هذا ما روى ، أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى النبى عليه السلام وقد وقعت من يده السكين ، فقال ناولنى السكين ، فالتفت يمنة ويسرة ولم يفهم مراده ، فكرر له القولَ وأشار إليها فقال : آلمدية تريد ؟ فقال : نعم ، قال : أو تسمَّى عندكم سكينا ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ !

ممكن أن يعزى ذلك إلى تقاطع العرب ، لانعدام أسباب الاتصال المادية والمعنوية بينهم ، أو على الأقل يكون هذا من جملة الأسباب التى أدت إلى هذا الاختلاف .

وقد ينصر ذلك أن نرى الأمة المصرية قبل أن تمهد فيها وسائل الاتصال على النحو الذى نرى ، كانت متقاطعة ، وكانت لغتها مختلفة هذا الاختلاف أو أشد ، فقد كان بعض ألفاظ هذه اللغة الدارجة عند أهل الصعيد يحمل معنًى مقبولاً ، فى حين أنه يحمل عند غيرهم معنًى قبيحًا منكراً ، ولا تزال لهجتهم خشنة جافة ، إذا قيست بغيرها من اللهجات الأخرى !

لا سبيل إلى إنكار تناكر العرب قبل أن يمهد لهم الإسلام هذا التعارف العظيم ، والتقارب الشديد .

ولئن كانوا قد كانت لهم لغة أدبية راقية يتحرونها فى المواقف التى يطلبون فيها الإجادة وأن يكون قولهم أسيَر ، حتى كان من نتائج ذلك أننا لا نرى أثراً لاختلاف اللهجات فيما وصل إلينا من شعر جاهلىّ على ما يراه بعض الباحثين فى الشرق والغرب ...

نقول : لئن كانوا قد كانت لهم لغة على النحو الذى ذكرنا ؛ إنها لم تشمل عرب الجنوب كما شملت عرب الشمال ، بل إنها لم تشمل كل عرب الشمال ؛ لأن الشعراء آحاد معدودون فى كل أمة بالقياس إلى سائرها ، ثم إن لُجُوءَ الشعراء إلى تلك اللغة الأدبية الواحدة لم يكن فى كل الأحيان ، بل كان حيث يطلبون لشعرهم أن يروى ، ولقولهم أن يسير فإذا صدروا عن الأسواق وما إليها ، مما يجتمع فيه العرب من شتى القبائل ، لم تعد بهم حاجة إلى تكلف لغة غير لغتهم ؛ فانصرف كل إلى لغته الخاصة .

على أن بعض الباحثين ينازع فى أن تكون ثمة لغة واحدة يعالجها الشعراء على النحو الذى سلف ويقول : لو كان يمكن أن يتكلف العربى لهجة غير لهجة قبيلته ، لكان كتاب الله أحق بأن ينزل العرب عن لهجاتهم ليقرءوه على ما جاء به فى لهجته القرشية ؛ ولكان النبى عليه السلام يمتعض لقراءته بغيرها إذ كانت هى أعذب اللهجات ، وإذ كانت ممكنة لاتفضى إلى حرج ؛ وإذ كان القرآن بها أشد أسرًا ، وأسحر سحرًا ؛ ولكن

الثابت الذى لا ينكر أنه عليه الصلاة والسلام ، أقرَّ القارئين بلهجاتهم ؛ ولم ينصر عمرَ ، وقد أمسك بتلابيب رجل من العرب ، سمعه يقرأ بما أنكره ، بل لم يكتف . صلى الله عليه وسلم ، بذلك وقال : أنزل القرآن على سبعة أحرف .

وعلى هذا وذاك . فقد بقى التناكر والاختلاف فى اللغة بين عامة العرب حتى مجىء الإسلام .

نزل القرآن باللغة القرشية ، ولم يؤثرها على غيرها عبثًا . فقد كانت سهلة واضحة . وعذبة مبينة . روى صاحب الإتقان أن « الواسطىّ » قال فى كلام له :

« ..... لأن كلام قريش سهل واضح . وكلام العرب وحشىّ غريب » .

ويعلل الباحثون سهولة لغة قريش وعذوبة لهجتهم . بأنهم كانوا ينتقون من لغات الوافدين عليهم — وهم كثير لمكانة قريش الدينية والاقتصادية — ما عذب لفظه وخف وقعه . وقد خلقت لهم حياة التحضر التى كانوا يحيون ، ذوقًا ولطف حسّ أفضيا بهم إلى حسن التخير حتى صارت لغتهم المثل الأعلى لسائر العرب لما فيها من عذوبة وجمال . ولما لهم هم من سيادة ونفوذ .

وواضح كل الوضوح أن القرآن إنما آثرها لذلك . ولخلوها من هنات كانت لغيرها . بل لفضلها اللغات جميعًا لطفَ أداء . ووضوح مخرج ، ثم لأنها أوسع اللغات يومئذ انتشاراً فى الجزيرة العربية ، أو لأن الناس على

الأقل يقبلون عليها ويستريحون إليها أكثر من سواها . ويكون انطباعهم عليها أشد وأسرع .

وأيًّا ما كان فقد حاول العرب الاقتراب منها . وودوا لو أن ألسنتهم انطبعت عليها حين رأوا هذا القرآن يزيدها حسنًا . ويفيض عليها عذوبة . وحين سمعوه فسمعوا به ما فعل بهم فعل الخمر ؛ وأثر فيهم تأثير السحر ، والعربيّ بطبعه . يطرب لحسن النظم ويرتاح لجميل البيان ؛ فيدفعه ذلك — وهو حريص على أن يحرز ما يعجبه أو شيئًا منه — إلى التأسي به ومحاولة السير على نهجه . فيروض لسانه حتى يستقيم له ما يريد .

ثم إن القرآن خلق للعرب جامعة دينية سياسية حفزتهم إلى التعارف والاختلاط . في المساجد والنوادي ، ومواقف الحروب في الجزيرة وغير الجزيرة ؛ وقد استحكمت حلقات الوحدة العربية بهدايته . وكان أكثر القائمين بالدعوة إلى تلك الهداية ممَّن ينطقون باللغة التي نطق بها القرآن ؛ وذلك — مع أن القرآن كان متلوًّا بكل لسان تعبدًا به أو تأثراً بفصاحته ، أو نظرًا في أحكامه . أو طلبًا لمعارضته — من شأنه أن يذهب بجانب عظيم من تناكر اللغات واختلاف اللهجات .

ولما خرج الإسلام من الجزيرة إلى العراق والشام ومصر وسائر الممالك التي افتتحها المسلمون . ودخل من أهل تلك الممالك ، الكثيرُ في دين الله ودخلوا كلهم في طاعته وتحت حكمه ؛ تعلموا اللغة لأسباب مختلفة ، بعضها ديني وبعضها دنيوي ، ومن غير المعقول أن يعالجوا غير لغة القرآن

فزال الاختلاف ، ورجعت اللهجات المستكرهة بقايا أثرية ، تروى ، إن رويت ، على أنها شاهد أو دليل ؛ ثم تلا ذلك عصر التدوين ، فدونت اللغة غير منظور إليها إلا على أنها لغة أمة من الناس سوَّدها الإسلام ، ووحَّدها لغةً ودينًا وغايةً ؛ وبذلك التأم صدع اللغة العربية ، واجتمع شتيتها فى لغة العبادة والقراءة والكتابة ، وأصبح من الممكن أن يتفاهم العرب وغير العرب بلغة واحدة فصيحة ، ولهجة واحدة عذبة ، لا يستعصى على أحد فهمها ، ولا تروعه عنجهيتها ، فلا يعدل أحد عن طريقها .

جَعْلُها لِسَانَ الدَّولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

لم تعن أمة من الأمم قبل الإسلام باللغة العربية ، تعالج آدابها ، وتتعرف تاريخها ، فضلا عن أن تهتم لها فتتخاطب بها أو تتفاهم عن طريقها ؛ لأن العرب لم يكونوا الأمةَ التى يغرى مركزها السياسى أو الدينى أو الاجتماعى بالتحبب إليها والاتصال بها حتى يستتبع ذلك أن تتصل بلغتها تستعين بها على تقوية أواصر الألفة ، وتوثيق عرى الصداقة بينها وبينها ؛ ولأن اللغة العربية لم تكن لغة علوم ومعارف ؛ لأن اللغة على ما هو مقرر ثابت صورة لحياة أمتها ، ولم تكن الأمة العربية أمة علم ومعرفة ، فلم يكن فيها ما يحمل الأمم على معرفتها حتى يستفيدوا علماً أو معرفة ؛ ثم لأن العرب كانوا يحقرون غيرهم من الأمم حتى يستنكروا الإصهار إلى غير عربى ، ويسموا ابن العربى من غير العربية هجيناً لا تستساغ مساواته بالصريح

فى الحقوق والمعاملات ، كما يسمون ابن العربية من غير العربى مقرفاً .

وقد ظلت هذه النعرة فيهم إلى ما بعد الإسلام ، إلا قليلا ممن فقهوا الإسلام وفهموه على وجهه الصحيح !

ذهب أعرابى إلى « سوار » القاضى ، فقال : إن أبى قد مات ، وتركنى وأخًا لى ، وخط خطين ناحية ، ثم قال : وهجينًا لنا ، وخط خطًا ناحية ، ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم أثلاثاً إن لم يكن وارث غيركم ؛ فقال له : لا أحسبك فهمت ؛ إنه تركنى وأخى ، وهجينًا ، فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الأعرابى : أيأخذ الهجين مثل الصريح ؟ قال : أجل ! فغضب الأعرابى وقال : إنك لقليل الخالات بالدهناء !

هذا الأعرابى ومثله ، وهم كثير ، لم يتأثروا من غير شك بتعليم الإسلام فهم يمثلون النزعة العربية الجاهلية أصدق تمثيل . وإذا كان العرب يحملون هذا الشعور بالنسبة إلى الأمم الأخرى ، فإن هذه الأمم لا تقل عنهم شأنًا فى ذلك إن لم تكن فيه أبعد أثراً ؛ فإن الحضارة أبداً تنظر إلى البداوة نظر هزء وسخرية واستخفاف !

وقد ظهرت هذه النزعة من جانب غير العرب ، حتى فى الوقت الذى تحضروا فيه ، ومظهر ذلك ، هذا الشعر الذى ظهر فى العصر العباسى ؛ يفضل غير العرب عليهم ، وهذه الشعوبية التى بلغت أشدها إذ ذاك تقتنص العرب وتغض من أقدارهم .

يقول شاعر فارسيّ يفتخر بقومه ويعرض بالعرب :

بهاليل غرٌّ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا، لا من عرينة أو عكل
هم راضة الدنيا . وسادة أهلها إذا افتخروا . لا راضة الشاء والإبل

فأنت تراه قد رفع شأن الفرس . وقال إنهم ساسوا الدنيا . وملكوا أزمتها . في حين أنه تنقص العرب ورماهم بأنهم رعاة إبل وشاء . ليس لهم مما يعتز به الناس سوى ذلك . وهو شيء تافه حقير إذا قيس بعزة الملك وجلال السلطان .

هذا الشعور المتبادل بين العرب وغير العرب . ثم كونهم لا يغرى مركزهم بالاتصال بهم . والتقرب منهم . والتودد إليهم ؛ ثم كون اللغة العربية ليست لغة علم ومعرفة . . . كل ذلك جعل اللغة تقبع في جزيرتها . فلا تبرحها إلا لتعود إليها . مع أولئك الذين كانوا يشتغلون بالتجارة . أو تلجئهم أسباب حياتهم إلى الاختلاط المحدود بالفرس والروم ؛ وذلك شيء مهما كان شأنه لا يمهد للُّغة العربية سبيل الظهور في غير البيئة العربية .

وقد ظلوا كذلك . حتى جاء القرآن الكريم . يحمل أسمى ما تعرف البشرية من مبادئ وتعاليم . فحرض العرب أشد التحريض على هداية الناس وإرشادهم . فاندفعوا . والموت أحب إليهم من الحياة . يغزون الأمم ويفتحون الممالك . حتى خضع لهم العالم ، وملكوا من حدود الهند والصين ، إلى جبال البرانس من أسبانيا . حتى رأينا المأمون يخاطب السحابة فيقول :

« سيري أنَّى شئتِ ، فستمطرين لي ذهبًا » .

ومما لا شك فيه أن أولئك الفاتحين كانوا كلما دخلوا أرضًا، دخلتها اللغة معهم ، لها من السيادة على لغات الأمم المفتوحة ما لهم هم فيها من سمو منزلة وعزة مكانة ، فدخلت العراق ، والشام ، ومصر ، والسند ، وبخارى ، وخوارزم ، وسمرقند إلى كاشغر ، وبلاد الأندلس وبلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر إلى مضيق جبل طارق ؛ فخرجت بذلك من محبس طال لبثها به ، ومكثها فيه ، وتضعضع أمامها لغات الأمم المفتوحة على الرغم من أن بعضها ، كاللغة الفارسية كان لغة حضارة ، فيها ما يفتقر إليه المسلمون فى حياتهم الجديدة السياسية والاجتماعية ؛ حتى لم تجرؤ لغة على الوقوف إلى جانبها وبقيت هى اللغة الرسمية لسائر الممالك الإسلامية .

لم تكن سيادة اللغة وانتصارها هذا الانتصار الرائع ، من طريق الإرغام ؛ وإنما انساق الناس إليها بدافع الدين ، أو الدنيا ، أو هما معاً ، وذلك أن جمهرة هذه الأمم التى بسط الإسلام عليها نفوذه ، قد دخلت فى دين الله ، وأخلص كثير منهم فى إسلامه ، إذ رأوا فيه مبادئ واضحة وعادلة ، يسيغها العقل ، وينصرها المنطق ، فلا جرم ، كان من الطبيعى أن يقصدوا إلى فهمه ، وتعرف أسراره ، والإلمام بما فيه من حكم وأحكام ، والقرآن كما رأينا ، دستور الإسلام ، وهم لن يفهموا هذا الدستور الكريم ولن يقوموا ببعض الشعائر فيه إلا إذا أقبلوا على لغته يتعلمونها ، ويحاولون حذق أصولها .

وكذلك ما كانوا يرون من أن التفاهم مع ولاتهم من العرب موقوف على تعلم العربية ، ثم هؤلاء الخلفاء وعمالهم يجزلون العطاء لمن يجوّد شعراً أو نثراً

ويقربونهم إليهم ويولونهم مناصب فى الدولة ؛ كل ذلك كان له أثر أى أثر فى إقبال الناس على اللغة . حتى إن الرجل ليدفع بابنه إلى تعلمها ، رجاء أن يجنى ثمرة ، أو يحرز جاهًا . والذى يرى استباق الشرقيين اليوم لتعلم لغات المستعمرين وآدابهم ، لأن فى معرفتهم ذلك خيراً يرجونه وجاهًا يؤملونه أو لذة يقصدون إلى تحقيقها والوصول إليها — يدرك فى يسر كيف كانت الأمم تتسابق إلى تعلم العربية ، وشدو أروع آدابها .

هما إذن أمران لكل منهما أثره الخاص فى نشر اللغة ، وتوسيع نفوذها :

أولهما : محاولة الناس فهم القرآن ومعرفة أحكام الدين ؛

وثانيهما : الحاجة إلى التفاهم مع الولاة والحكام والتقرب إليهم رجاء منفعة دنيوية .

وكلا الأمرين دفع إليه ، ومهّد له القرآن الكريم ، فلولاه لبقيت اللغة محبوسة فى جزيرتها ، لا تتسلط على أمة ، ولا تهيمن على شعب ، ولسنا هنا بسبيل الفرض والتقدير حتى نسمع ما يقولون : لو تحضّر العرب فملكوا ، لخرجت لغتهم معهم ؛ فإنما نبحث أمراً وقع ، وهو أن القرآن هو الذى أخرج العرب فعلاً ، وشق لهم طريق المجد ، ومهد للغتهم سبيل السؤدد .

على أننا لا نستطيع أن نسلم بأن فى مقدور العرب — وهم على ما كانوا عليه مما كان سيفضى بهم حتماً إلى الفناء — أن يتآلفوا ويتفاهموا ، ويطرحوا ما فيهم من غرائز تأبى عليهم الخضوع والانقياد كل الإباء ،

ثم يتحضّروا ويشيدوا ملكًا يبقى ولو قليلا ، فى مأمَن مِن خطر تنافسهم وحبهم للسيادة والرياسة ، وإنى لمؤمن الإيمان كلّه بأن فى القرآن سرًّا ، إليه يرجع ما ظهر فيهم من خضوع للقيادة العليا ، وإغضاء عن دواعى ما فيهم من حسد وأنفة ، حتى استطاعوا أن يدحروا جيوش فارس والروم ، فقد وجههم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، وجهة استولى عليها هذا السر القرآنى وهو الذى ألان من قناتهم وجعلهم ينصرفون عن كل شىء إلا عن الوقوف عند أحكامه ، والأخذ بمبادئه وتعاليمه ، وهو الذى أنام فيهم طبيعة المنافسة ، وقتل حب الرياسة ، فعملوا وكانت غايتهم من كل أعمالهم منفعة الأمة لا منفعة الفرد ، حتى إذا لاح لهم شبح الدنيا ، وتعامى بنو أميّة عن النظر إلى هذا السر القرآنى العظيم ، انصرفوا من القتال لله ، إلى القتال للشهوات ، ومن ثَمَّ انصرفوا عن قتال الأعداء إلى قتل الأولياء .

القرآن إذن ، هو وحده الذى أعدهم لأن يملكوا ، فهم من دونه لا يستطيعون أن يؤسسوا ملكًا ، بل لا يستطيعون أن يحفظوا ملكًا ؛ وهذه أسبانيا ، وتلك بغداد ، تحدثنا عن ذلك حديثًا كله منطق وكله إقناع .

ولست أعنى أنهم جبناء أو ضعاف ؛ وإنما أعنى أنهم فى سبيل الرياسة ، وتنازع السيادة ، لا يحفلون بشىء ولا يقدرون عاقبة ، حتى كأن الشاعر إنما يعنيهم إذ يقول :

اقتلونى ومالكاً واقتلوا مالكاً معى

فهل مثل هؤلاء يصلحون لبناء ملك وإقامة سلطان ، إلا إذا قام عليهم وأدبهم القرآن ؟ !

ولنسلم فى كثير من التسامح وبعد لأى شديد ، أن يتناسى العرب ما بينهم من أحقاد طاحنة ، وما فيهم من غرائز مردية وأن يخرجوا من صحرائهم ليؤسسوا ملكاً يقوم بنيانه ، وأن تسود فى حنايا هذا الملك لغتهم بعد أن يرغم الناس عليها إرغاما ؛ ولكن الذى لا سبيل إلى التسليم به أن يملكوا معظم الدنيا ، وأن تستبد فى هذا الملك العريض لغتهم وهى لغة نشأتها الصحراء ، وأن يبقى لهذه اللغة نفوذ ، ويمتد لها ظل بعد أن تدول دولتهم ويزول سلطانهم فلا يملكوا الدفاع عنها ، بل حمل الناس قسراً عليها!

لقد رأينا النفوذ الفارسى ثم التركى يسيطر فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، على كل شىء فى الدولة بما فى ذلك اللغة ، وتيقظت العصبية الفارسية للغة الفهلوية ، وقد ذل العرب بعد ذلك ، ولم يبق فى يدهم من السلطان ، إلا ما يبقى فى كف القابض على الماء ؛ ومع ذلك ظلت اللغة تدفع عن نفسها ، وتعلن عن وجودها ، فى شىء من الضعف ، خضعت به خضوعاً محدوداً لما كانت ترمى به من عصبيات موتورة ، وجهالات حمقاء ؛ ونقول خضوعاً محدوداً ؛ لأننا نعتقد أنها لو خضعت الخضوع المطلق لما انتابها من شدائد ومحن ، ولم تعتز بكتاب الله ، وتحيا فى رعايته لوجب أن لا يكون لها اليوم أثر فى غير جزيرة العرب .

لم يكن فى وسع العرب إذن ، لولا القرآن ، أن تصل لغتهم إلى ما

وصلت إليه من النفوذ والقوة ، ومن السعة والانتشار ؛ إما لأنهم ليست فيهم الدوافع إلى ملك ، فضلا عن ملك عظيم ، وأن نوع حياتهم الذى كانوا يحيون كان سيسلمهم إلى الفناء والهلاك ؛ وإمّا لأنهم لو أتيح لهم ذلك على افتراض إمكانه لخضعوا لما تخضع له الأمم من الضعف والاضمحلال ، ثم للفناء والزوال ، ثم تتراجع لغتهم إلى الجزيرة .

ولعل فى اختفاء اللغة التركية ، بعد ضياع نفوذ الأتراك من رقعة الدولة الإسلامية فى المشرق والمغرب، وقد كانوا حاولوا تسويد لغتهم وجعلها لغة رسمية — لعل فى هذا ما يؤيد هذا الذى ذكرنا .

وجملة القول ، أن اللغة العربية ما كانت تطمع فى أن يتعدى سلطانها جزيرتها ، فتضرب الذلة على لغات نمت فى أحضان الحضارة وترعرعت بين سمع المدنية وبصرها ؛ وتستأثر دونها بالمكان الأسمى فى ممالك ما كان العربى يحلم أن يحيا بها ، فضلا عن أن يكون السيد المتصرف فيها ؛ ولكن القرآن الكريم انتزعها من أحضان الصحراء ، وأتاح لها ملكًا فسيح الأرجاء ، تأخذ منه لألفاظها ومعانيها ، وأغراضها وأسلوبها ، مالم تمكنها منه حياتها البدوية فبعد أن كانت ثروتها فى حدود بيئتها ، أصبحت غنية فى كل فنون الحياة ، فأقبل الناس عليها ، وانصرفوا إليها مدفوعين بالحاجة إلى التفاهم مع أوليائهم من العرب ، وإلى معرفة أحكام الدين ، وأداء واجبات الإسلام .

جعلُها لُغَةً تَعْلِيمِيَّةً

كان الصواب للعرب فى لغتهم — إعرابًا وبلاغة — أمراً يستندون فى تحصيله إلى السليقة، فلم يكونوا يجرون فى إقامتهم كلامهم، وتحريهم إعرابه، وتخيرهم أساليبه، على قواعد خاصة، وقوانين يُوقِّفون عليها، بحيث يصدر عنهم ما يصدر من قول ملاحظاً فيه تلك القواعد وهذه القوانين:

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سليقى أقول فأعرب

وقد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا فى مقدار تمكن العربى من لغته؛ فذهب فريق إلى أن العربى يجرى فى لغته على الفطرة والطبع فهو لا يزيغ ولا يطاوعه لسانه إذا قصد أن يزيغ . . .

وذكروا لذلك ما رأوا أنه يؤيدهم فيما ذهبوا إليه:

فمن ذلك مسألة «كنت أظن العقرب أشدَّ لسعًا من الزنبور، فإذا هو هى» فقد ذكروا أن سيبويه أنكر «فإذا هو إياها» وأجازه الكسائى، فاحتكما إلى أعرابى فقضى لسيبويه أن لسان العربى لم يطاوعه فيقول: «فإذا هو إياها». وإن كان قد انتصر للكسائى كما تقول إحدى الروايات، فذلك تدليس، لأن أنصار الكسائى لما رأوا أن العربى لا يستطيع النطق بما أنكر سيبويه؛ اكتفوا بأن تطرح المسألة على مسامعه، فيقول: الحق مع الكسائى؛ دون أن ينطق العبارة كما أرادها الكسائى، واكتفوا منه بأن

يقول : رأى الكسائى صحيح !

ومن ذلك ما نقل عن أبى حاتم السجستانى أنه قال : قرأ علىّ أعرابىّ : طيبى لهم وحسن مآب ؛ فقلت له طوبى ، فقال : طيبى ، فأعدت وقلت طوبى ، فقال طيبى ، فلما طال علىّ ، قلت : طو ، طو ، فقال : طى ، طى !

ومثل هذا كثير ، يرويه العلماء شاهداً على أن اللغة العربية عند العرب طبيعة راسخة ، وجبلة ثابتة .

وذهب فريق آخر إلى أن اللغة فى كل أمة من قبيل الملكات لا من قبيل الطبائع ، فإذا حاول العربى أن يلحن لحن ، وإذا تعمّد الزيغ زاغ ، وقد اشتدّ ابن خلدون فى الرد على الفريق الأول حتى رماهم بشرّ الأوصاف وذلك حيث يقول :

« . . . . . فإن الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ؛ ولذلك يظن كثير من المغفّلين ممن لم يعرف شأن الملكات ، أن الصواب للعرب فى لغتهم إعراباً وبلاغة ، أمر طبيعىّ ، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع ؛ وليس كذلك ؛ وإنما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى بادئ الرأى أنها جبلة وطبع . . . » .

وفى الحق أن أولئك العلماء قد أبعدوا فى الغلو ، إذ قالوا ما قالوا ، — وذلك شأن كثير منهم — فى اللغة العربية وكل ما يتصل بهذا الجيل من

الناس ، يحاولون أن ينسبوا إليها كل ما يظنون أن فيه فضيلة ، وإن كان من البعد والشذوذ بحيث لا يدل عليه دليل ، أو بحيث لا يمكن أن يدل عليه دليل ، ومن هذا ما نراه لعالم جليل ، هو « ابن فارس » من أن اللغة فى كل مظاهرها بتوقيف من عند الله تعالى ، بل لقد زعم أن العرب العاربة ، كانت تعرف النحو والعروض بمصطلحاتها بتوقيفٍ مَن قبلَها حتى ينتهى الأمر إلى الله !!!

وما أشك فى أننى لم أقتنع بما يذهب إليه هؤلاء . ولا بما أوردوه ويوردونه ، مما يقولون إنه حجة أو دليل .

فمسألة سيبويه موضوعة مختلقة ، اختلقتها العصبية التى بلغت شأواً عظيماً بين البصريين والكوفيين يومئذ .

ومسألة أبى حاتم ، ليست أقل تخاذلاً وسقماً ، وحسبى أن أذهب إلى صبيان المكاتب لأرى صبياً يلقّنه المعلم : يستبشرون ؛ فلا يستطيع النطق بها على حين أن الصبيان من حوله يرددونها فى يسر وسهولة ، وكلهم نشأ معه فى بيئته ، وبعضهم يمت إليه بسبب ويلتقى معه فى نسب . فلعل هذا الأعرابى صاحب أبى حاتم كان من أولئك الذين تتحكم فيهم العادة ويهيمن عليهم الإلف ، إلى حد أنهم لا يستطيعون الخروج من سلطانه ؛ وهكذا كل ما يحاول أولئك الغُلاة أن يثبتوا من طريقه أن اللغة طبيعة ، لا يبعد أن يكون عنه محيص ومنه مخرج ؛

لا ريب أن كون اللغة ملكة أقرب وأشبه ، وأولى بالقبول ؛ على أن

هذا الخلاف فى ذاته لا يعنينا بمقدار ما تعنينا نتيجته التى نقصدها فى هذا الموضوع ، وهى أن اللغة العربية — إعرابًا وبلاغة — لم يكن العرب يستعينون على تحصيلها والوصول إليها من طريق قواعد معينة وقوانين مخصوصة ؛ كان الصبىُّ ينشأ بين قومه فيسمعهم يتخاطبون فيحدث لأساليبهم وتراكيبهم فى نفسه أثر ، ثم يتكرر ذلك فيزيد هذا الأثر ، ويزيد التكرار فتحدث له صفة راسخة فى نفسه ، هى ما يسمى الملكة ، وهذه الملكة تجعله ينطق بالصواب وإن لم يقصد أن ينطق بالصواب ، بل أكاد أقول إنه إذا قصد النطق الصائب جرَّه ذلك إلى الخطأ على ما هو الشأن فى الأعمال المنعكسة والأعمال العادية ، وليس ببعيد أن تكون الملكات من هذا القبيل .

وما أظن أن أحداً يخالف فى ذلك ؛ وعليه فما مظهر أثر القرآن فى ذلك ؟

واضح أن الملكة اللغوية من الناحيتين : الإعرابية ، والبلاغية ، خضعت للصناعة ذات الأصول والقواعد الخاصة ؛ فالمتكلم يلاحظ مواقع بعض الكلم من بعض ، ويستعين على معرفة ذلك بمصطلحات خاصة تكفل بشرحها وبيانها علم النحو ؛ والبليغ يدرس الأساليب العربية ، وينظر فى معانى المفردات اللغوية حتى يتأتى له الذوق الخاص .

وقليل أو نادر ، أو متعسر ، أن يدانى فى ذلك عربيًّا نشأته الصحراء ؛ لمكان العجمة وما يحدثه الاختلاط من أثر فى نفوس المستعربين ، ولهذا رأينا الخلفاء يذهبون بأبنائهم إلى الصحراء حتى يتلقوا هذه الملكة ،

لا تعدو عليها عجمة ، ولا تزاحمها لكنة ، حتى إن الوليد بن عبد الملك مع أنه عربى كان كثير اللحن ، لأنه لم يغترف لغته من الينبوع العربى الصحراوى.

وعلى الجملة ، ضعفت الملكة العربية فى أولئك الذين تحضروا وتركوا حياة الصحراء ، بالقياس إلى غيرهم ممن لم يلابس حياة التحضر ؛ وأشفقوا من الضعف والتخاذل حتى قال عبد الملك بن مروان وهو من هو : قد شيَّبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ؛ وهذا يدل على أن القوم يومئذ قد أنسوا من أنفسهم شيئاً من الضعف فإن هذا القول لا يسمح به عربى جاهلى أو آخر عاش فى صدر الإسلام .

فأما العرب فى جزيرتهم فقد ظلوا محتفظين بملكاتهم إلى أواخر القرن الرابع ، لبعد العجمة منهم ، وزهدهم فى أن يفارقوا جزيرتهم ؛ ثم فسدت ملكاتهم أيضاً لكثرة ترددهم على الحواضر ، ولشدة اختلاطهم بالحجيج من أمم معرقة فى العجمة ؛ ولا يعرف للملكة العربية الخالصة بعد ذلك مكان إلا فى « عكاد » جبل باليمن ، قد ظل أهله يتكلمون اللغة العربية الفصيحة حتى القرن الثانى عشر ، على ما يرويه الزبيدى شارح القاموس المحيط .

وجملة القول أن اللغة العربية، إعراباً وبلاغة ، كانت ملكة راسخة فى نفوس العرب فى الجزيرة ، فلما جاء القرآن وأخرجهم من هذه الجزيرة، إلى هذا الملك العظيم ، واختلطوا بالأعاجم وعاشوا عيشة مدنية وحضارة ، ضعفت هذه الملكة ثم فسدت وصارت اللغة تكسب بالتعلم والتعليم .